الكاتبة لا ترى الشر إلا عارضاً، فمآل الانسان الأخير هو الخير، ورجوعه إلى الخير هو شرط لتحقيق إنسانيته، فالانسان كانسان لا يحقق الامكانات الايجابية القائمة فيه إلا في إطار الخير والاخلاق. من هنا، نلمس معنى النهايات الايجابية والمتفائلة التي تحفل بها قصص سميرة عزام. نهايات تبشيرية، تلخص مسار الانسان في عمله النهائي، في استيقاظ بصيرته، التي قد تضل حيناً، وتبتعد عن الصراط، لكنها تعود، في النهاية، إلى السبيل القويم (انظر: الشيخ مبروك، في المفكرة، امومة خيّرة، مات ابوه، هل يذكرها، العيد من النافذة الغربية...)، تصل كل هذه القصص إلى نهاياتها المتفائلة، معلنة انتصار الانسان، وانتصار قيم الحياة المطالبة بالفرح والسعادة والنجاح. نستطيع ان نرى، في هذا الشكل من «النهايات»، تمازجاً بين الفكر الاخلاقي والفكر الديني، او بين النزعة الانسانية والفكر الديني؛ حيث يقف الانسان محقّقاً قدراته كفرد وكانسان، ثم يذهب في عالم الغبطة والسعادة الذي يخلقه الايمان، اي ان الانسان يوازي، في مساره الخاص به، مسار الرعاية الالهية التي تحفظه، وبسبب ذلك التوازي،فإن الانسان لا يضل طريقه، بل يذهب في دروب الكمال ليبرهن ان الانسان هو ظل الله على الارض.

إن قراءة السمات الاخلاقية في قصص سميرة عزام، تدفعنا إلى قراءة الموقف الاخلاقي في اكثر اشكاله نقاء وصفاء، اي في اكثرها وهماً، ونعني بذلك القصة القصيرة في شكلها الميلودرامي، الذي يبتعد كلياً عما هو ممكن ومعاش، وينطلق بعيداً باحثاً عن معنى الانسان في عوالم الاخلاق المطلقة.

الميلودراما ودائرة الاخلاق

يعود نزوع بعض قصص سميرة عزام نحو الميلودراما إلى الايديولوجيا التي تنطلق منها الكاتبة، ونعني بذلك الايديولوجيا الاخلاقية، التي تترك آثارها على شكل القصة ومضمونها. وعندما نقول ذلك، فإننا نذكّر ببساطة بالعلاقة القائمة بين شكل الكتابة وبين المنطلق الايديولوجي الذي تتكىء عليه. ونحن نعلم ان النزعة الاخلاقية، تفضي، عندما تُغرب في تجريدها، إلى فصل كامل بين المجرّد والمشخّص، وإلى فراق كامل بين الممكن والمرغوب، وفي هذا الفصل، تنأى التحديدات الاجتماعية، وتستوي الاخلاق كياناً مستقلاً ومفارقاً للواقع، بل يصبح الواقع مجرّد ظل لحركة الأفكار المجرّدة، اي ان النزعة الاخلاقية لا ترجع، في محاكمتها، إلى الواقع الاجتماعي بل إلى الاوامر الاخلاقية التي تتعاطى مع انسان لا وجود له في الواقع. وما دام الامر كذلك، فإن الانسان الذي تدعو اليه الاخلاق هو كامل بالضرورة او قريب من الكمال، او لنقل إنه انسان لا يقبل به الواقع الاجتماعي بسبب كماله، لأن هذا الكمال لا تسمح به حدود الواقع المعاش. لهذا، فإن الاخلاق تدور، في تعاملها مع الانسان، بين طرفين، الطرف الاول هو الانسان المجرّد، والطرف الثاني هو المرجع الخارجي المجرّد بدوره، وما بينهما يقوم الكمال وتنهض كل القيم الايجابية، التي تشير إلى ما هو مطلوب، وتفصح عن رادع خارجي يرسم صورة الانسان كما ينبغي ان تكون. في العلاقة القائمة بين الكمال والمرجع الخارجي يستجلي البعد الديني في النزعة الاخلاقية؛ وهذا البعد، في تحديده الاخلاقي، هو الذي يدفع